

الدولة والدين

د. محمد سامح سعيد

أستاذ بكلية الهندسة – جامعة القاهرة

=====

هناك مقولة بأن أوروبا لم تتقدم إلا عندما فصلت الدين عن الدولة . والسبب فى ذلك أن الكنيسة كانت تحكم الممالك الأوروبية بيد حديدية . وكان البحث العلمى مستهدفا من قبل الكنيسة . فلما رأى جاليليو أن الأرض كرة تدور حول نفسها وحول الشمس ورأى كوبرنيكس أن الأرض ليست مركز الكون قامت الكنيسة ولم تقعد لأن رأى الدين كان مخالفا . ولم تنطلق أوروبا إلا حين خفت يد التحكم البابوى وانفصل الدين عن الدولة . وفى التاريخ الإسلامى لم يجتمع الفقه والحكم إلا فى عهد الخلفاء الراشدين وهم الذين أسسوا الدولة الإسلامية . صحيح حدثت فتن وحروب بين المسلمين وخسر على بن أبى طالب كرم الله وجهه أمام معاوية بالخديعة والدهاء والخيانة ولكن هذه هى السياسة . السياسة عادة لا تعترف بالأخلاق والمثل . وقد عبر عن ذلك مكيافى بأن الغاية تبرر الوسيلة . ومع توالى نظم الحكم الأموية والعباسية والأخشيديية والطولونية والعثمانية وغيرها . لم يجتمع الحكم والمرجعية الدينية فى شخصية واحدة وإن اتخذت الدولة شكليا هيكلأ عاما دينيا . ثم انهارت الخلافة العثمانية بعد قرون من اعتلالها حتى أنها سميت رجل أوروبا المريض . وقد كانت سببا فى تأخر المسلمين عن اللحاق بالثورة الصناعية فى أوروبا هذا التأخر الذى نعانى منه حتى الآن . ثم تعرضت الأمة لموجات من الاحتلال والعدوان الغربى عندما أصابها التمزق والتفرق والضعف والتخلف والانحلال . وفى أواخر القرن العشرين وبدايات هذا القرن بدأت كثير من الحركات الإسلامية فى الظهور ، بعضها يطالب بعودة الخلافة وبعضها كفر المجتمع وبعضها عادى Alienated غير المسلمين وبعضها اختص لنفسه بصفة الإسلام مع أن باقى المجتمع من غير أتباعها مازالوا مسلمين . وصاحب ذلك انتشار موجة عارمة بالعودة للإلتزام بالحجاب . فنهض العلمانيون للتصدى لهذه الحركات حتى أن العلمانيين الأتراك اعترضوا على دخول مرشح للرئاسة زوجته محجبة واعترضوا على مسابقات تحفيظ القرآن . ثم تولدت مجموعات إرهابية متطرفة تقتل وتدمر هنا وهناك باسم الدين والدين منهم براء . المشكلة الحقيقية التى يواجهها العالم الإسلامى هو التخلف ، التخلف العلمى والصناعى والاقتصادى والاجتماعى والمعرفى والإنسانى. تخلف شامل شل كل أوجه الحياة وحول شعوبنا إلى شعوب خاملة مستهلكة تستجدى الغذاء والعون فى كل شىء . شعوب تستورد من الإبرة إلى الصاروخ وتكاد لا تنتج أو تصدر شيئا وإن أنتجت فمعظمه ردىء لا يرقى للمنافسة العالمية . شعوب وصمت بالكسل والعجز والتخاذل وسقوط الهمة وغياب الهدف . لا تدري ما الهدف من هذه الحياة وما هو الدور المنوط بنا فيها . شعوب انشغلت بالصغائر والتفاهات والشكليات والعالم يلهث ويتقدم كل يوم بل كل ساعة – وفى إطار سعى بعض

الحركات الإسلامية نحو الحكم . أقامت حركة طالبان مثلاً نموذجاً سيئاً لمجتمع إسلامي منغلقة حرمت فيه المرأة من التعليم وبدا للعالم والمسلمين أيضاً أن الحركة الأصولية والإسلامية هي ردة للخلف وتجميد للزمن وتكريس للتخلف والتجمد والانغلاق . وعلى جانب آخر مثلاً نشطت دول إسلامية إلى إقامة مجتمع يسعى للتقدم ويحرص على تطوير الصناعة والتكنولوجيا والبحث العلمي بالتوازن بين الدين والعلم والروحانيات والماديات . إذاً الأمر ليس له علاقة باتخاذ الدين إطاراً للدولة . الأمر يتعلق بالعمل وتحديد الهدف وبالسعى نحو العلم والتقدم . اليابان ومعظم دول أوروبا دول متقدمة وليس لها هوية دينية رسمية . وإسرائيل رغم أنها في الظاهر قامت على عقيدة دينية أو فكر ديني إلا أنها حركة علمانية في الأساس إلا أن وجودها يعتمد على التفوق العلمي والتكنولوجي والعسكري . إذاً اتخاذ الدين شعاراً ليس هو في حد ذاته السبيل للتقدم . إنما السبيل هو العمل والعلم والجدية والالتزام والضمير والهدف والأخذ بالأسباب هذا هو الإيمان الصحيح . ما نحتاج إليه هو التربية الأخلاقية في إنكفاء الإخلاص والإتقان كما يدعو الدين وفي إيقاظ الضمير وفي الحث على مكارم الأخلاق وحسن المعاملة والتسامح مع الآخر . هذا وطن مطلوب بناؤه علمياً وتكنولوجياً وتربوياً وصناعياً واجتماعياً ومعلوماتياً ، الكل يجب أن يشارك فيه مسلمين ومسيحيين على اختلاف درجات تدين كل منهم فالدين مسألة بين الإنسان وربه . ولأن النزعة الدينية عالية الشدة عند المصريين جميعاً مسلمين ومسيحيين وفي جميع العصور فإنه يمكن تشجيع التوجه الديني في الإطار التربوي والإنساني وفي إطار محاربة الفساد وفي الإخلاص في العمل ويقظة الضمير . نحن نريد طبيياً متديناً يخاف الله ويتقيه في مرضاه . ونريد مهندساً يخاف الله ويتقيه في عمله . ونريد مدرساً يتقن عمله مخافة الله ومحبة فيه . ونريد رجال أعمال شرفاء يتقون الله في الوطن وفي ثرواته وفي فقراه . ونريد قضاة نزيهين يخافون الله ويبتغون رضوانه . ونريد ساسة يخافون الله ويستمسكون بالمبادئ رغم ما قال ميكافيلي . لا بد من إيجاد صيغة لتوحيد الجهود لبناء الوطن تحدد خطوطاً حمراء ومعايير تضمن أمن الوطن وسلامته ووحدته الوطنية واستقراره في إطار سيادة الدولة واحترام القانون . ولا بد من احتواء كل التيارات والتوجهات لكل الأفراد ممن لم تلوث أيديهم بدماء الأبرياء وتوجيه كل الطاقات لبناء الدولة الحديثة بلا استقطاب ديني ولا استعداد مذهبي . هذا هو التحدي الذي يجب أن تفكر فيه الدول الإسلامية والتي لا بد أن توحد جهودها من أجل التقدم وتحقيق القوة الذاتية والاعتماد على النفس في عصر التكتلات الاقتصادية العالمية . هذا هو التدين الذي أفهمه .